النشـــــــــــرة

تصـــدرها مطـــرانية الـــروم الأرثوذكـــس في بـــيروت

العدد ١٣ / ١٩٩٩
الأحد ٢٨ آذار
الأحد الخامس من الصوم
(أحد مريم المصرية)
تذكار أبينا البار إيلاريون الجديد

اللحن الأول
إنجيل السَحَر التاسع

الـــرســـالـــة (عبرانيين ٩ : ١١ – ١٤)
الإنـــجـــيـــل (مرقس ١٠ : ٣٢ – ٤٥)

+ البارة مطرونة

تعيّد الكنيسة المقدسة في السابع والعشرين من آذار لتذكار البارة مطرونة التي كانت نموذجاً للتفاني في تكريس نفسها للمسيح فبقيت بتولاً لغاية موتها.

لا نعرف الكثير عن أصل القديسة مطرونة إلا أنها عاشت في أواخر القرن الثالث في مدينـــة تسالونيكية (شمال اليونان)، وكانت خادمة لدى إحدى النساء العبرانيات الغنيّـــات. لـــم تكـــن مطرونة راهبة إنما عاشت بتولة، مكرِّسة نفسها للرب ومتمســـكة بإيمانـــها المســـيحي دون محاباة.

كانت تذهب سراً كل يوم إلى إحدى الكنائس القريبة وتقدّم العبادة لله رغم قساوة سيدتها اليهودية التي ما لبثت أن علمت انها مسيحية فحاولت ثنيها عن ايمانها، ولما لم تنجح راحت تستعمل القسوة وسلّطت عليها رجلاً عبرانياً ليضطهدها ويفقدها بتوليتها. لم تستطع هذه السيدة العبرانية شيئاً مع مطرونة التي كانت تزداد صلابة في ايمانها وحفاظاً على بتوليتها. وبمقدار تزايد تعلّقها بالمسيح وحرارة ايمانها به كانت قساوة سيدتها. أخيراً أمرت السيدة أحد خدامها أن يضرب مطرونة بالعصا فضربها بقساوة حتى ماتت. خافت السيدة الظالمة ودفنت جسد مطرونة سراً تحت أساس بيتها، لكن بعض المسيحيين عرفوا بالأمر محفروا المكان وأخذوا جسدها الطاهر وحفظوها في مكان لائق. لاحقاً بني الاسقف القديس الكسندروس كنيسة على اسم القديسة مطرونة ونقل رفاتها إليها.

تقف القديسة مطرونة أمامنا نموذجاً للأمانة للرب، ولا يهم إذا كان الإنسان عبداً أو حراً. فقد وعت مطرونة ان حريتها هي في المسيح رغم كونها خادمة، وفي الوقت الذي كانت فيه عبدة بالبشرة لسيدتها العبرانية وُجدت حرّة بالمسيح. هكذا يجب أن نبقي أنفسنا أحراراً في المسيح ولا ندعها تُستعبد لملذات هذا العالم وأهوائه ولا نستسلم للشيطان الذي يرغب بهلاكنا. فبشفاعة القديسة مطرونة البتول والشهيدة اللهم ارحمنا وخلّصنا آمين.

+ المعمودية والصوم

"أم تجهلون اننا كل من اعتمد ليسوع المسيح اعتمدنا لموته فدفنّا معه بالمعمودية للموت حتى كما أُقيم المسيح من الأموات بمجد الآب هكذا نسلك نحن أيضاً في جدّة الحياة. لأنه إن كنا قد صرنا متحدين معه بشبه موته نصير أيضاً بقيامته " (رومية ٦: ٣-٥).

لقد وعى المسيحيون منذ البدء إرتباط المعمودية الفصح. يعلّم بولس الرسول أن المعمودية هي موت وقيامة مع يسوع المسيح، موت الإنسان العتيق فينا وقيامة الإنسان الجديد على صورة المسيح القائم من بين الأموات. وانطلاقاً من هذا الارتباط كانت تتم معمودية الأشخاص المستعدين للإستنارة ليلة الفصح بالذات. " الفصح هو أكثر الايام ملاءمة لإقامة المعمودية، ففيه تمت آلام الرب التي فيها نعتمد... تلي الفصح فترة العنصرة التي هي فسحة بهجة جداً لإقامة المعموديات والتي فيها أُعلنت قيامة الرب للتلاميذ أكثر من مرة " (ترتليانوس، في المعمودية، ١٩) وما خدمة سبت النور إلا الدليل الواضح، لغاية يومنا هذا، على الإرتباط بين المعمودية والفصح إذ لدنيا خمس عشرة قراءة من العهد القديم كان يتم خلالها تعميد الموعوظين في بيت المعمودية الملاصق للكنيسة، وبعدها يدخلون في زياح أثناء

ترتيل " أنتم الذين بالمسيح اعتمدتم المسيح قد لبستم". اما الرسالة الإنجيل اللذان يُقرآن في هذا اليوم فهما نفس الرسالة والإنجيل اللذين يُقرآن في خدمة المعمودية.

لقد وعت الكنيسة منذ البدء أهمية المعمودية، إذ عبر المعمودية يدخل الإنسان إلى الكنيسة ويصير عضواً في جسد المسيح. لهذا، وابتداء من القرن الثاني، وُجد نوع من التهيئة المنظمة للراغبين بالمعمودية، الموعوظين. فكان على كل راغب بالمعمودية أن يخضع لفترة تعليم تمتد ما بين سنة وثلاث سنوات يتعلّم خلالها الإيمان القويم. وكان عليهم قبل المعمودية أن يصوموا عدداً من الأيام – تراوحت بين يومين في القرن الثاني وأربعين يوماً في القرن الرابع – وكانوا يأتون خلالها كل يوم لتُتلى عليهم صلوات الإستقسامات – طرد الشياطين – ثم يتم تعميدهم يوم الفصح بعد قضاء الليل في قراءة الكتاب والصلاة.

بعد حصول الكنيسة على السلام مع الإمبراطور قسطنطين، في القرن الرابع، وإعلان المسيحية الديانة الرسمية للإمبراطورية، صار الموضوع أكثر وضوحاً. هذا ما نعلمه من كتابات كثير من الآباء وخاصة كتابات القديس كيرلس الأورشليمي (القرن الرابع) الذي كتب " العظات الأسرارية "، ومن كتابات الرحالة اثيريا التي قامت من إسبانيا برحلة حج إلى أورشليم وكتبت لأخواتها تخبرهنّ عن مشاهداتها. فكان على الموعوظين أن يأتوا في أول الصوم عرّابيهم ويسجّلوا أسماءهم أمام الأسقف ثم يأتون كل يوم إلى الكنيسة لسماع العظات ولكي تتلى عليهم الإستقسامات. وكان الصيام يمتد لأربعين يوماً في كثير من الأماكن، تشبهاً بالرب يسوع المسيح الذي صام أربعين يوماً في البرية بعد معموديته (متى ٤).

وانطلاقاً من مفهوم الوحدة العضوية في جسد المسيح الواحد ولأن كل الكنيسة تتهيأ لاستقبال الأعضاء الجدد في هذا الجسد، فكان لزاماً على كافة المؤمنين مشاركة الموعوظين الصيام. وهكذا وصل الصيام إلى حياة الكنيسة وبقي فيها. فبعد أن صار معمودية الأطفال هي السائدة ولم يعد هناك تهيئة للموعوظين الكبار، بقي الصوم لتهيئة المؤمنين كافة لاستقبال الفصح، قيامة الرب. كل يوم نخون محبة الله في الصميم عبر خطيئتنا ونحن بحاجة لتجديد معموديتنا بالتوبة، والصوم هو خير مساعد لتوبتنا إذ عبره يتخلّى الانسان عن كثير من ملذاته. وإذا كان الطعام في البدء سبب طردنا من الفردوس فالإنقطاع عنه اليوم هو سبب عودتنا إليه.

+ لماذا أصوم

هناك علاقة وارتباط بين طاقة الإنسان وما يصدر عنه من أفعال. فالأقوياء الاشداء مثلاً أكثر استعداداً للغضب من الضعفاء الهزيلين، لأنهم يحتفظن في أجسادهم بطاقة أكبر مما

يلزم لحاجتها الطبيعية.ومعلوم أن طاقة الإنسان ترتبط إلى حد كبير بقدر الغذاء الذي يتناوله ونوعه. فكرة الصوم تقوم على هذه المعادلة، فهي رياضة روحية يقصد بها الحد من تغذية الجسد حتى لا تتوفر له من الغذاء طاقة كبيرة قد لا يقوى الإنسان على حسن توجيهها. يقول القديس يوحنا كسيان "حينما تمتلئ المعدة بكل أنواع الطعام، فذلك يولّد بذور الفسق. والعقل، حينما يُخنق بثقل الطعام، لا يقدر على توجيه الافكار والسيطرة عليها. فليس السكر من الخمر وحده هو الذي يذهب بالعقل، لكن الإسراف في كل أنواع المآكل يضعفه ويجعله متردداً ويسلبه كل قوته في التأمل النقي."

+ الصوم لجام قوي للجسد

معلوم ان الإنسان يسكن في جسد شهواني مشاغب، يشتهي كل ما هو مادي جسدي. هذا الجسد يجذب صاحبه جذباً عنيفاً إلى أسفل، لأن الجسد يشتهي ضد الروح والروح ضد الجسد، وهذان يقاوم أحدهما الآخر: " لاني لست أفعل الصالح الذي أريده بل الشر الذي لست أريده فإياه أفعل... فإني أسر بناموس الله بحسب الإنسان الباطن. ولكني ارى ناموساً آخر في أعضائي يحارب ناموس ذهبي ويسبيني إلى ناموس الخطيئة الكائن في أعضائي. ويحي أنا الإنسان الشقي، من ينقذني من جسد هذا الموت" (رو ٧: ١٩-٢٤).

لقد اختبر آباؤنا القديسون هذا الأمر وما زالت أقوالهم حيّة تحمل لنا هذه الإختبارات. قال القديس اسحق " كل جهاد ضد الخطيئة وشهواتها يجب أن يبتدئ بالصوم، خصوصاً إذا كان الجهاد بسبب خطيئة داخلية ". أما القديس يوحنا الأسيوطي فيقول " الصوم بالنسبة للشهوات كالماء بالنسبة للنار".

+ الصوم هو بدء طريق الروح

ان مخلّصنا يسوع المسيح اعطانا المثال في الصوم. فبعد اعتماده في الأردن صام حتى يبدأ كل الذين يريدون أن يسلكوا في جدة الروح والحياة، طريق الحياة الجديدة بالصوم. يذكر القديس يوحنا كسيان اختباراً رائعاً عن ذلك فيقول " لا نستطيع أن ندخل في معركة مع انساننا الباطن ما لم نتحرر من رذيلة الشراهة. يجب أولاً أن نثبت اننا قد تحررنا من الإنقياد للجسد الذي إن انغلب منه أحد فهو مستعبد أيضاً : " كل من يعمل الخطيئة هو عبد للخطيئة " (يو ٨: ٣٤)

+ الصوم ممهّد للفضائل والمواهب

اذا اعتبرنا الصوم بدء طريق الروح، فهو بلا شك ممهّد للفضيلة. انه يفتح الباب أمام الفضائل لتدخل إلى النفس وتزيّنها. بمقدار ما يتلطف الجسد بالنسك تكون له الحياة الروحية أوفر. أما الطعام فيجذب النفس إلى نقله ويربط أجنحة أفكارها. واذا ما نقص عن الجسد الطعام فأنه يخضع لإرادة النفس بسهولة، وهي تجذبه إلى جميع ما تختاره. قال أشعياء النبي " لمن يعلّم معرفة، لمن يفهم تعليماً. أللمفطومين عن اللبن، للمفصولين عن الثدي" (أ ش٢٨: ٩). فمن هم المفطومون عن اللبن، المفصولون عن الثدي إلا الذين زهدوا محبة العالم، وتركوا تنعم الجسد، مخضعين اياه بالصوم والنسك؟ من أجل هذه حذرنا ربنا يسوع قائلاً " فاحترزوا لأنفسكم لئلا تثقل قلوبكم في خمار وسكر وهموم الحياة فيصادفكم ذلك اليوم بغتة" (لو ٢١: ٣٤).

+ الصوم مهذب للجسد ومدرّب للحواس

قال داود النبي " أذللت بالصوم نفسي " (مز ٣٥: ١٣)، أما الرسول بولس فيستعمل تعبيراً أكثر دلالة على عمل الصوم وفعاليته فيقول " أقمع جسدي وأستعبده ط (١ كو ٩: ٢٧).

لفظة " قمح " تستخدم عادة في الثورات، والجسد فيه ثورة، وفيه تمرّد تقوم به بعض الاعضاء المشاغبة. في الصوم نضيِّق على أجسادنا وحواسنا بأن نمنع عنها أشياء محبّبة إليها. وعلى هذا فالصوم يعتبر فرصة طيبة لتهذيب الجسد عن طريق تدريب حواسه الثائرة بالتدريبات الروحية وأنواع النسك. وبالجملة فإن الصوم إلى جانب تهذيبه للجسد وتدريبه للحواس يوصل إلى نقاوة النفس.

+ الصوم خير مقوٍّ للإرادة

سبب سقوط الإنسان في الخطيئة هوضعف إرادته إزاء الاغراءات الخارجية المختلفة. أحياناً يسقط نتيجة انخداعه بهذه الإغراءات، وأحياناً أخرى يسقط وهو يعلم مسبقاً أنه يستسلم للخطيئة والإثم، لكنه لا يملك القدرة على مقاومة الإغراء. إن إرادته تضعف، بل تنهار أمام الشهوة. وهنا تبرز أهمية الإرادة في حفظ الإنسان بلا دنس. ويأتي الصوم في مقدمة الوسائل الفعالة لتقوية الإرادة البشرية. فالإنسان يصوم بإرادته. الفرصة متاحة أمامه أن يأكل ويشرب، وأن يتناول ما لذّ وطاب من المآكل والشارب، لكنه يضبط نفسه ولا يخضع لشهوة بطنه. أليس هذا تدريباً للإرادة ؟ ان الإنسان بالصوم يقاوم شهوة الطعام، وهذا يقوده بالتدريج

وبالضرورة إلى مقاومة الشهوة في كافة صورها. الصوم يعتبر إذاً تدريبا هاماً من تدريبات تقوية الإرادة.

+ ها نحن صاعدون إلى أورشليم

يأخذ يسوع تلاميذه الإثني عشر، على حدة، ويقول لهم : " هوذا نحن صاعدون إلى أورشليم، وأبن البشر سيُسلم".

يشير الإنجيل بوضوح إلى أنها مفاجأة، او كلام متبادل على انفراد. غذ ان يسوع لم يبح بسرّ الرحلة، في الطريق الصاعدة، إلى كل التلاميذ، بل إلى الرسل وحدهم.

لا شكّ في أن يسوع ينتظر، الآن، من كل مسيحيّ أن يشترك في الحدث الحاسم الذي وقع في أورشليم. لكنّه سيبقى سيّد الزمان والدعوات الخاصة، وهو يختار الساعة التي يدعو فيها تلميذه، ليشارك الرسل في امتيازهم، ويصعد معه إلى أورشليم، عندما تكون النهاية الأليمة في مدى النظر.

كم هم المسيحيون الذين أعاروا هذه الدعوة آذاناً صاغية؟ كم هم الذين أدركوا أن ما حدث آنذاك، في أورشليم، وما لا يزال يحدث في أورشليم الجديدة، التي لا تُرى، هو أخطر ما في العالم؟

لقد سمعت، أيها الرب يسوع، دعوتك، إذ انفردت بي في الطريق. أنت تريد أن اعتزل الناس الآخرين (لأعود فأنضمّ إليهم بشكل أفضل) وأصحبك إلى نهاية رحلتك التي تكشف لي، وستكشف أكثر فأكثر، عن معناها وملامحها.

يا رب، انطلاقاً من اليوم، أريد، بنعمتك، أن يكون الصعود إلى أورشليم، وما أرى وأسمع منك، خلال الأسبوع العظيم والأخير، هو الإهتمام المسيطر في حياتي ، ونموذج كل الباقي، والدائرة الضيّقة والفسيحة معاً التي يندرج فيها الباقي بأسره، وتشغل أنت مركزها.

وها أنا أدير ظهري لكل ما طلبتُه وتتبّعتُه ! ها أنا أطرح في الماضي كلّ ما لا يقدر على الإندماج في سرّ فصحك العظيم، الذي تريد أن أفضي اليه. وها أنا أصعد معك الى أورشليم، فلْيصمت الآن كل ما هو من الجسد !

يفتتح الإنجيل الرابع رواية الفصح الأخير والآلام بهذا الكلام : " إذ أحب يسوع خاصته الذين في العالم، أحبهم الى النهاية". الى النهاية تعني أن يسوع لم يحّب البشر حتى آخر لحظة من وجوده الأرضى فحسب بل إنه أحبّهم حباً ناجزاً وكلياً وكاملاً ونهائياً. إنه أحبّهم حباً أقصى. وفي الآلام بلغ حبّه الذروة. هنا يسبر التلميذ غور يسوع على النحو

الأعمق والأكثر ثمرة. وهنا اكتشف الى أي مدى، وبأي ثمن، أنا محبوب. فحملُ الله، في بذله نفسه، هو الحمل الأكمل، وهو يتجلّى بهذه الحال. فأرني الحمل، يا ربّ !

الأب ليف جيله